مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين

بشار عواد معروف

يعد علم الحديث بحق أعظم ما أنتج الفكر الاسلامي في اصالته وتشعب علومه وفنونه . واذا صح ورقى الشك الى اصالة بعض العلوم العربية الاسلامية ، فان من الصعوبة بمكان أن يشك في اصالة الحديث ، كما ان من غير الممكن القول بوجود تأثيرات خارجية ساهمت في تطوره ؛ ذلك لانه من العلوم العربية الاسلامية الصرفة التي جاء بها الاسلام وتطورت بتطور الحياة الاسلامية ومتطلباتها .

وقد اهتم العلماء المسلمون بعلم الحديث اهتماماً بالغاً ، فالفوا فيه كثيراً من الكتب التي تبحث في مصطلحه وعلومه(١) تناولت ، بالبحث والتمحيص والتحقيق والتدقيق ، رواية الحديث وأحوال رواته ، ومختلف الحديث ، وعلله ، وغريبه ، وناسخه ومنسوخه وما الى ذلك من العلوم الاخرى .

وكان للحديث أثر بعيد في تطور كثير من العلوم الاسلامية ، فقد أثر في علم العربية في كثير من مجالاتها وأدى الى تطور في دراستها . كما أثر بصورة واضحة جلية في علم التاريخ عند المسلمين وهو ما سنتناوله في بحثنا هذا .

وليس الغرض من هذه المقالة تبيان أثر علم الحديث في كتابة التاريخ عند المسلمين بقدر ما هو استعراض لمظاهر هذا التأثير . ولذلك فاني سأقتصر على توضيح هذه المظاهر بشكلها العام وتبيان اسسها العامة فقط ، وهو ما يسمح به مثل هذا المجال الضيق ، فنتناول بالبحث مظاهر هذا التأثير في الاسناد ، وكتب التراجم ، والتواريخ العالمية والعامة ، والانساب ، والتواريخ المحلية .

أولا ـ الاسناد :

ليس لدينا تاريخ محدد لاستعمال الاسناد في الحديث . ويروي

مسلم : « حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح : حدثنا اسماعيل بن زكريا ، عن عاصم الاحوال ، عن ابن سيرين ؛ قال : لم يكونوا يسألون عن الاسناد. فلما وقعت الفتنة ، قالوا : سموا لنا رجالكم . فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم . وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[٢] » . والواقع اننا لا نعرف ما هي الفتنة المقصودة بقول ابن سيرين هذا ؛ فقد توفي ابن سيرين سنة ١١٠هـ[٣] وهذا يحتمل افتراضات كثيرة فهناك أولا فتنة عثمان ، وهناك فتنة صفين وما تبعها ، ثم لدينا الفتنة التي قامت اثر تنازل معاوية الثاني بن يزيد الأول عن الخلافة وما أعقبها من اضطرابات ومعركة مرج راهط وثورة ابن الزبير ، وليس لدينا بعد هذا (فتنة) بالمعنى الصحيح حتى وفاة ابن سيرين .

يؤكد الامير كايتاني في كتابه « حوليات الاسلام » ، وقد بحث فيه فترة كبيرة من القرن الاول الهجري بحثاً واسعاً اعتمد بالدرجة الاولى على النصوص ، ان الاسناد لايمكن أن يكون قد وجد قبل سنة ٧٥هـ[٤] ، كما ان يوسف هورفتس الذي بحث عن كتاب المغازي وكتبهم بحثاً وافياً يؤكد ان الاسناد قام في جيل الزهري « ت ١٢٣ فما بعد[٥]» ومن ثم فان سعيد ابن جبير « ت ٩٥هـ » كان لايسند حديثه وانه سئل عن الاسناد . روى الدارمي عن عبدالله بن عمران عن يحيى بن ضريس عن أبي سنان عن ابن حبيب بن أبي ثابت قال : كنا عند سعيد بن جبير فحدث بحديث فقال له رجل : من حدثك هذا أو ممن سمعت هذا . فغضب ومنعنا حديثه حتى قام »[٦] .

ويبدو من احدى الروايات التي يوردها ابن سعد[٧] عن قتادة بن دعامة السدوسي « ت ١١٨ »[٨] انه كان لا يسند الحديث أول الأمر ، وانما كان يقول « بلغنا » عن النبي أو عن علي ، ولكنه أخذ يسند حديثه بعد ذلك .

ان هذه النصوص تثبت استحالة كون المقصود بالفتنة هي فتنة عثمان بن عفان كما يقول البعض[٩] ولا حتى أي من الفتن التي ذكرناها آنفاً . ويرى شاخت[١٠] ان المقصود بهذه الفتنة هي الحرب الأهلية التي بدأت بمقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ[١١] . قال الطبري في حوادث سنة ١٢٦هـ : « اضطرب أمر بني مروان وهاجت الفتنة »[١٢] ولما كان ابن سيرين قد توفي سنة ١١٠هـ لذلك فهو يرى ان هذا القول موضوع عليه . والملاحظ ان رأي شاخت هذا قائم على الافتراض والتخمين لا أكثر . ثم لماذا يصر على اعتبار « الفتنة » هي فتنة الوليد بن يزيد ؟ ولماذا يأخذ الكلمة بهذا المعنى اللغوي الضيق ؟ ألا يمكن أن يراد بها ظهور الأحزاب وانتشار الكذب ووجود الأهواء والمصالح التي تدفع الى الوضع والانتحال ؟ يمكننا بكل سهولة أن نفترض ان ما أراده ابن سيرين بقوله هذا هو وجود عوامل تساعد على الوضع . ولعل مما يؤيد ما ذهبنا اليه ان

النص الذي يورده الدارمي خال من كلمة « الفتنة »[١٣] ٠

ومن جهة اخرى يلاحظ ان هشام بن عروة بن الزبير « ت ١٤٦ »[١٤] قال : « اذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا »[١٥] بل ويبدو من احدى الروايات التي تروى عن عامر بن شراحيل الشعبي « ت ١٠٣ »[١٦] انه سأل عن الاسناد[١٧] في الوقت الذي نجد فيه المحدث المشهور عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ[١٨] يعتبر الاسناد جزء من الدين[١٩] وهو أمر يبين لنا الدرجة التي وصل اليها الاسناد في أيام ابن المبارك حتى اعتبر جزء من الدين ، وهذا يدل على ان الاسناد وصل الى صورته الكاملة التي بقي عليها ٠ وكذلك فان أحمد بن حنبل « ت ٢٤١هـ »[٢٠] يعتبر « طلب الاسناد العالي سنة عمن سلف »[٢١] ٠

أما في الكتب المتقدمة التي وصلتنا فيلاحظ ان مالك بن انس « ٩٣ـ١٧٩هـ »[٢٢] يستعمل الأسانيد في كتابه الموطأ ، الذي هو كتاب حديث وفقه في آن واحد ، وان كان استعماله لها ليس بالدقة التي عرفت فيها فيما بعد ٠ ومعلوم اننا لا نعرف تاريخاً محدداً لتأليف الموطأ ، ومع ذلك فانه من المؤكد أن يكون قبل سنة ١٥٨هـ وهي السنة التي تولى فيها المهدي الخلافة ، اذ كان المهدي قد روى الموطأ عن مالك وهو لما يزل أميراً لم يتول الخلافة بعد[٢٣] ٠ ويستعمل أبو يوسف صاحب الامام أبي حنيفة الاسناد بشكل واضح في كتابه المشهور « الخراج »[٢٤] الذي وضعه لهارون الرشيد فيأثناء خلافته « ١٧٠ـ١٩٣ »[٢٥] ٠ أما الشافعي «ت٢٠٤هـ» فانه لايستعمل الاسناد حسب بل ان فكرة المصطلح واضحة عنده ، فهو مثلا يعتذر عن الأحاديث المقطوعة[٢٦] ويتكلم عن الأحاديث المرسلة[٢٧] ويبحث في التدليس[٢٨] ٠

واستناداً الى كل ما قدمنا يمكننا القول بسهولة ان بداية الاسناد في الحديث والتاريخ خضع لعملية تطور ملحوظة حتمتها الظروف التي مرت بالمجتمع الاسلامي ٠ كما وجب ملاحظة الوقت الذي أصبح فيه الاسناد بشكله المتقن الذي بلغ أوج عظمته كما يقول شاخت[٢٩] في الوقت الذي وضعت فيه الصحاح الستة ابان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ٠

وعلى هذا لايمكننا أن نفترض وجود الاسناد بصورته الواضحة قبل بداية القرن الثاني الهجري ٠ ولعل الفكرة التي كانت تخامر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز في جمع الحديث وتدوينه[٣٠] كانت تمثل البداية الواضحة للاهتمام العظيم بالحديث ككل ومن ضمنه الاسناد ولذلك فان النصف الاول من القرن الثاني الهجري من الممكن اعتباره الوقت الذي تمركز فيه الاسناد وظهر بصورته الأخيرة ٠

وكان من العوامل التي أدت الى ظهور الاسناد ، بالاضافة لما تقدم ، هو حرص راوية الحديث على دقته وضبطه وتحقيقه ، وخوفاً من التحرج الديني ؛ ذلك ان المحدث الذي يسند الحديث مرفوعاً الى النبي (ص) يشعر

بالطمأنينة لعلمه ان الآخرين يشتركون معه في مسؤولية تحمل درجة صحة الحديث(٣١) • ومن ثم فان الحديث يكون ، في هذه الحالة ، أكثر قبولا عند النـــاس نظرا لأهمية الحديث النبوي للمسلم وذلك لتعلق الأحكام الشرعية به(٣٢) • لذا فقد لاحظنا أن كثـــيراً من الصحابة قد تحرجوا في رواية الحديث • فأدى الأمر الى وضع شروط شديدة تستطيع الالمام بها اذا ما تصفحت كتب علم الرجال ومصطلح الحديث وبخاصة كتاب الـكفاية للخطيب البغدادي •

ولما كان معظم المؤرخـــين الأوائل محدثين ، ولما كانت العناية بعلم الحديث هي التي أدت الى الدراسات التأريخية(٣٣) ، لذلك انتقل الاسناد الى أهل التأريخ بشكل واضح • ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحاً في كتب الطبقات والتراجم وتواريخ المدن وغيرها مما سنوضحه فيما بعد • كما يبدو ذلك جلياً عند نصر بن مزاحم المنقري في كتاب صفين(٣٤) وكتاب « تاريخ الرسل والملوك » للمؤرخ المحدث الفقيه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري « ت ٣١٠هـ » الذي اهتم بالاسناد اهتماماً كبيراً وجعل نقده منصباً على هذا الأساس ؛ فقوة الرواية وضعفها تعتمد في أغلب الأحيان على أسانيدها، فصرح في مقدمة كتابه قائلا : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره مما شرطت اني راسمه فيه انما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه •••• فما يكن في كتابي هـذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتي من قبل بعض ناقليه الينـــا ؛ وانا انما أدينـــا ذلك على نحو ما أدى الينا »(٣٥) فبين الطبري ان العهدة في صحة الخبر على من روى الحادثة ، وهو بذلك متأثر ، ولا شك ، بطريقـــة المحدثين الذين أقاموا النقـــد على الاسناد ولم يناقشوا المتن الا في القليل النادر(٣٦)• قال الشافعي : « ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه الا بصدق المخبر وكذبه ، الا في الخاص القليل من الحديث ، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيـــه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله ، أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه • »(٣٧)

ومن أجل ضبط الرواية والاسناد استعمل المحدثون صيغاً للتحمل والاداء بلغت الذروة في دقتها فكان كل تعبير يدل على نوع معين من أنواع الاداء نحو : حدثني ، وحدثنا ، وأخبرني ، وأخبرنا ، وسمعت ، وسمعت وهو يحدث ، وقرىء عليـــه وأنا أسمع ، وأنبأني ، وأنبأنا ، وناولني ، وشافهني ، وكتب الي يخبرني ، وأخبرنا فيما كتبه الي ، وقال وذكر ••• الخ(٣٨) •

وحينما يطالع الباحث كثيراً من كتب التاريخ بكافة صوره يلاحظ اهتمام المؤرخين بالاسناد ومن ثم انتقال هذه الصيغ والمراتب اليهم ، كما يلاحظ الباحث من جهة اخرى تشابهاً في طريقة النقد المنصبة على الاسناد والمستعملة فيها الاصطلاحات نفسها التي استعملها المحدثون كأن يقولون عن حادثة معينة ان راويتها «كذاب» أو «غير ثقة» أو «ثقة» أو يقولون ان سند هذا الخبر «منقطع»(٣٩) أو «مرسل»(٤٠) وما الى ذلك ٠ وفيما يأتي أمثلة على ذلك في تاريخ الطبري [ط٠ أبو الفضل ابراهيم] ٠

١ ـ حدثني محمد بن عمارة الاسدي ومحمد بن منصور ـ واللفظ لابن عمارة ـ قالا : حدثنا عبيدالله بن موسى ، قال : أخبرنا موسى بن عبيدة عن أياس بن سلمة بن الاكوع ، عن أبيه قال :
[ح٢ ص٦٢٩]

٢ ـ حدثنا هارون بن اسحاق ، قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، وحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، قالا جميعاً : حدثنا اسرائيل ، قال : حدثنا أبو اسحاق ، عن البراء ، قال : [ح٢ ص ٦٣٦]

٣ ـ حدثنا السري ، قال : أخبرنا شعيب ، قال : حدثنا سيف ـ وحدثني عبيدالله ، قال : أخبرنا عمي ، قال : أخبرنا سيف ـ قال : أخبرنا المستنير بن زيد ، عن عروة بن غزية الدثيني ، عن الضحاك بن فيروز ـ قال السري : عن جشيش بن الديلمي ، وقال عبيدالله : عن جشنس بن الديلمي ـ قال : ٠٠٠ [ح٣ ص ٢٣١]

٤ ـ وأما سيف ، فانه قال ـ فيما كتب الي السري يذكر ان شعيباً حدثه عنه ؛ وعن محمد والمهلب وطلحة وعمر وسعيد ـ ان
[ح٤ ص ١٢٠]

٥ ـ قال [سيف بن عمر] : فكان سبب فتح همذان ـ فيما زعم ـ أن محمداً والمهلب وطلحة وعمراً وسعيداً أخبروه أن ٠٠
[ح٤ ص١٤٦]

٦ ـ حدثني زياد بن أيوب ، قال : حدثنا هشيم ، قال : زعم أبو المقدام ، عن الحسن بن أبي الحسن ، قال ٠٠٠٠ [ح٤ ص٤١٨]

٧ ـ حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا عوف، عن ميمون أبي عبدالله ، أن عبدالله بن بريدة حدث عن بريدة الاسلمي قال ٠٠٠ [ح٣ ص١١]

٨ ـ حدثني ابراهيم بن سعيد الجوهري وسعيد بن يحيى بن سعيد ـ قال ابراهيم : حدثني يحيى بن سعيد ، وقال سعيد بن يحيى : حدثني أبي ـ وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ؛ جميعاً عن ابن اسحاق ، قال : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة ، عن مسلم بن عبدالله بن خبيب الجهني ، عن جندب بن مكيث الجهني ، قال ٠٠٠
[٣ح ص٢٧]

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ليس في تاريخ الطبري وحده لكن في كثير من الكتب التي اتبعت طريقة المحدثين واستعملت الاسناد ·

على ان الاسناد في التاريخ لم يبلغ ما بلغه في الحديث اذ نرى في بعض الأحيان تساهلا في الاسانيد ورواتها ؛ فالطبري مثلا يقبل رواية الضعفاء ـ عند المحدثين ـ مثل محمد بن السائب الكلبي(٤١) وابنه هشام ابن الكلبي(٤٢) ، واسماعيل بن عبدالرحمن السدي(٤٣) · كما انه يستعمل كلمة «ذكروا»(٤٤) ، و «قيل»(٤٥) ، و «قال بعضهم»(٤٦) ، و «قالوا»(٤٧) ، و «قال آخرون»(٤٨) ، و «فيما يذكرون»(٤٩) ··· الخ · ثم اننا نجد المجاهيل في ثنايا اسناده(٥٠) ، كما ان كثيراً من الروايات مرسلة يقف أغلبها عند طبقة ابن عباس وابن اسحاق والسدي وغيرهم وخاصة الاخبار المتعلقة بالمبتدأ والجاهلية ·

وقد قبل الأئمة من المسلمين تاريخ أبي معشر المدني(٥١) لكنهم ضعفوه في الحديث اذ « كان ينفرد بأحاديث أمسك الشافعي عن الرواية عنه»(٥٢) والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ·

وثابت ان السبب في ذلك عدم اهتمام المسلمين بالتاريخ قدر اهتمامهم بالحديث ؛ فليس للتاريخ تلك الاهمية التي صارت للحديث من جراء دخوله كعامل من عوامل التشريع · وقد أدى ذلك الى بعض التساهل في اسانيد الروايات التاريخية · ومع كل هذا وذاك فقد ظل مؤلفو كتب الطبقات والتراجم يحكمون على الأشخاص باعتبارهم «محدثين» حتى وان غلبت عليهم صفة الاهتمام بالتاريخ أو الأدب أو ما الى ذلك من العلوم الاخرى · وهو أمر يوضح الى حد بعيد صلة اسناد التاريخ باسناد الحديث ·

ومن ثم وجب لهذا عدم اعتبار الاسناد هو الحكم الاول والاخير في صحة المرويات في كتب التاريخ والادب وغيرها · كما وجب ملاحظة نوعية الاخبار التي يوردها كل راوية من الرواة ومقارنتها مع مزاجه واسلوب حياته ·

ثانياً ـ كتب الطبقات(٥٣) والتراجم :

لقد نشأت كتب الطبقات بتأثير علم الحديث ليستطيع المحدث بواسطتها أن يعرف صحة الأسانيد وذلك بتحقيق أسماء الرجال، وأحوالهم، ودرجة صدقهم والوثوق بهم ، والوقت الذي عاشوا فيه ، ومقدار تحريهم للدقة والأمانة في الرواية · ويبدو ذلك واضحاً في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ(٥٤) والذي يعتبر سجلا لرواة الحديث من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقته ، مضافاً اليهم في القسم الاول منه سيرة الرسول (ص) ومغازيه ·

ويؤكد روزنثال(٥٥) ان تقسيم الطبقات هو أقدم تقسيم زمني وجد في التفكير التاريخي الاسلامي « وليست له أي علاقة في الأصل بطريقة الترتيب

تبعاً للسنين التي كانت مألوفة في تقاليد التراجم الاغريقية » ·

ويلاحظ من فحوى معظم التراجم في كتب الطبقات الاولى صلتها بالحديث ذلك ان كل ترجمة كانت تتميز عادة بالميزات التالية :

أ ـ نسب صاحب الترجمة مرفوعاً الى أحد البطون أو الاشخاص المعروفين ، وذكر بعض أقربائه حسب الأهمية والشهرة ، وقد تكون هذه الأهمية للمترجم نفسه أو لشهرة أقربائه المذكورين أو أهميتهم ·

ب ـ من روى عنهم ، ومن رووا عنه· أو بتعبير آخر أساتيذه وتلاميذه·

ج ـ تاريخ وفاته ، وتاريخ ولادته في القليل النادر ·

ثم تطور علم الطبقات وتوسع فوصل الى أوج عظمته في نهاية القرن الرابع الهجري ؛ فحينما نطالع مثلا كتاب طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ نلاحظ مدى تأثير علم الحديث ؛ فالتراجم قد بلغت درجة من الدقة تساوي دقة المحدثين ، كما يلاحظ أيضاً ان الاسناد فيها قد وصل الى درجة من الرقي · ويوضح السلمي ـ في مقدمة كتابه ـ منهجه في تأليف كتابيه « كتاب الزهد » و « طبقات الصوفية » بقوله(٥٦) :

« وقد ذكرت في « كتاب الزهد » من الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، قرناً فقرناً ، وطبقة فطبقة ؛ الى أن بلغت النوبة الى أرباب الأحوال ، المتكلمين على لسان التغريد ، وحقائق التوحيد ، واستعمال طرق التجريد· فأحببت أن أجمع في سير متأخري الأولياء كتاباً ، اسميه «طبقات الصوفية»· أجعله على خمس طبقات ، من أئمة القوم ، ومشايخهم ، وعلمائهم · فأذكر في كل طبقة عشرين شيخاً من أئمتهم الذين كانوا في زمان واحد ، أو قريب بعضهم من بعض · وأذكر لكل واحد ، من كلامه وشمائله ، وسيرته ، ما يدل على طريقته ، وحاله ، وعلمه ، بقدر وسعي وطاقتي » ·

وكان السلمي الى جانب ماذكر يورد عبارة « وأسند الحديث » بعد نسب صاحب الترجمة وقبل ذكر أقواله ، ثم يذكر بعد هذه العبارة ماروى المترجم من أحاديث نبوية باسناده · ولعل المثال التالي الذي نورده من طبقات الصوفية للسلمي ـ لا على التعيين ـ يمثل لنا مضمون أمثال هذه الكتب وطريقة عرضها للمادة · قال السلمي في ترجمة معروف الكرخي(٥٧):

« ومنهم(٥٨) معروف الكرخي ، وهو أبو محفوظ ، معروف بن فيروز·

سمعت محمد بن يعقوب الاصم ، يقول : سمعت زكريا بن يحيى بن أسد ، يقول : «معروف بن فيروز ، أبو محفوظ الكرخي» ·

ويقال : معروف بن الفيروزان ·

سمعت جدي ، اسماعيل بن نجيد ، يقول : سمعت أبا العباس السراج ،يقول : سمعت ابراهيم بن الجنيد ، يقول « معروف الكرخي ، هو معروف بن الفيروزان » ·

ويقال : معروف بن علي ·

أخبرنا يوسف بن عمر الزاهد ، ببغداد ؛ حدثنا عبيدالله بن جعفر الصغاني ؛ حدثنا عمر بن واصل ، قال : قال سهل بن عبدالله : « أخبرني محمد بن سوار ، عن معروف بن علي الكرخي الزاهد . »

وهو من جلة المشايخ وقدمائهم ، والمذكورين بالورع والفتوة . كان استاذ سري السقطي . صحب داود الطائي . وقبره ببغداد ظاهر يستشفى به ، ويتبرك بزيارته . سمعت أبا الحسن بن مقسم المقري ، ببغداد ، يقول: سمعت أبا علي الصفار ، يقول : سمعت ابراهيم بن الجزري ، يقول : « قبر معروف الترياق المجرب » .

وكان معروف أسلم على يد علي بن موسى الرضا ، وكان بعد اسلامه، يحجبه ؛ فازدحم الشيعة يوماً على باب علي بن موسى ، فكسروا أضلع معروف ، فمات . ودفن ببغداد .

«واسند الحديث» . ثم يورد بعد ذلك الأحاديث النبوية مسندة ويذكر بعدها جملة من أقواله مسندة أيضاً .

ولا ريب ان الباحث يشعر بسهولة وهو يقرأ مثل هذه الترجمة وكأنه يقرأ في كتاب حديث لا في كتاب طبقات ، فالاعتناء الزائد بالاسناد ، والاهتمام بالأقوال ، وذكر ما روي من الأحاديث النبوية ؛ امور تجعل الباحث يجزم بكون كتب الطبقات نشأت بسبب علم الحديث وتأثرت به من حيث الفحوى وعرض المادة .

هذه الدقة في ضبط طريقة العرض والتقسيم أدت بالكثيرين من كتاب العلوم الاخرى الى أن يسيروا على نهج المحدثين في هذا المضمار ، فوضعوا الكتب الكثيرة على غرار كتب طبقات المحدثين فمن ذلك :

١ ـ الفقهاء . وقد وضعوا كتبهم اما عموماً دون التخصص بمذهب معين من المذاهب مثل « طبقات الفقهاء » لأبي اسحاق الشيرازي «ت٤٧٦هـ» أو اقتصروا على مذهب معين مثل « طبقات الشافعية » لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي «ت٧٨١هـ» و «طبقات الشافعية» لأبي بكر ابن هداية الله المعروف بالمصنف «ت ١٠١٤هـ» ، و « طبقات الفقهاء » لعصام‌الدين أبو الخير أحمد بن مصلح‌الدين مصطفى بن خليل المشهور بطاش كبري زادة المتوفي سنة ٩٦٧هـ وهو في طبقات الحنفية . و « طبقات الحنابلة » لأبي يعلي الحنبلي « ت ٥٢٦هـ » و « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب « ت ٧٩٥هـ » ، وكتاب « المدارك » للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي «ت ٥٤٤هـ» وهو كتاب في طبقات المالكية ، و « الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة » لصدرالدين السيد علي خان المدني الشيرازي « ت ١١٢٠هـ » .

٢ ـ والقراء ، مثل : « طبقات القراء » للمحدث النسابة خليفة بن خياط « ت ٢٤٠هـ » ، و « طبقات القراء » لأحمد بن فضل الله الباطرقاني الأصبهاني « ت ٤٢١هـ » . و « طبقات القراء » لابي عمرو عثمان بن سعيد

ابن عثمان الاموي بالولاء القرطبي الاصل المتوفي سنة ٤٤٤هـ ٠

٣ ـ والصوفية والزهاد والنساك ، مثل : «طبقات النساك» لأبي سعيد بن الاعرابي « ت ٣٤١هـ » ، و «الزهاد» و «طبقات الصوفية» لابي عبدالرحمن السلمي « ت ٤١٢هـ » ، و «حلية الاولياء وطبقات الاصفياء» لابي نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني «ت ٤٣٠هـ» ، و «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» لعبدالرؤوف المناوي «ت ١٠٣١هـ» ٠

٤ ـ واللغويين والنحاة ، مثل : «طبقات النحويين البصريين وأخبارهم» لابي العباس محمد بن يزيد المبرد «ت ٢٨٥» ، و «طبقات النحويين» لابي بكر الزبيدي «ت ٣٧٩» ، و «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين السيوطي «٩١١هـ» ٠

٥ ـ والادباء ، مثل : «نزهة الالباء في طبقات الادباء» لابي البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد ابن الانباري «ت ٥٧٧هـ» ٠

٦ ـ والشعراء ، مثل : «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي «ت ٢٣٢هـ» ، و «طبقات الشعراء» لعبدالله بن المعتز الخليفة العباسي «ت ٢٩٦هـ» ٠

٧ ـ والفرق ، مثل : «طبقات المعتزلة» لاحمد بن يحيى بن المرتضى «ت ٨٤٠هـ» ٠

٨ ـ والمتكلمين ، مثل : «طبقات المتكلمين» لأبي عبدالله محمد بن عمران المرزباني البغدادي «ت ٣٨٤هـ» ٠

٩ ـ والاطباء ، مثل : كتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن أبي اصيبعة «ت ٦٦٨» ، و «طبقات الاطباء والحكماء» لأبي داود سليمان بن حسان الاندلسي «ت ٣٧٧هـ» ٠

وأما التراجم عموماً فالمقصود بها سرد حياة شخص معين ، وقد تكون الترجمة بضعة أسطر وقد تبلغ المائة صفحة (مطبوعة)(٥٩) وقد يشمل الكتاب على ترجمة واحدة وهو مايعرف بـ « السيرة » ، أو انه يشمل على آلاف التراجم ٠

ويقول روزنثال ان كتابة التاريخ على شكل تراجم وجد منذ زمن بعيد سبق صور الكتابات التاريخية الاخرى(٦٠) ولكن من حقنا أن نتسائل : هل تأثرت كتب التراجم عند المسلمين بما كان عند غيرهم من الامم ؟ ثم ما المانع من نشوء شيئين أو علمين في منطقتين مختلفتين في الزمان والمكان ؟

ان ما يعرف «بعلم الرجال» هو فرع من فروع علم الحديث نشأ دونما شك لمعرفة أحوال رواة الحديث ولذلك فهي تتميز باصالتها لاصالة علم الحديث نفسه ٠

وليس هناك فروق بين كتب الطبقات وكتب التراجم عموماً سوى الترتيب ، فبينما الاولى رتبت ترتيبا زمنيا ، طبقة فطبقة ، نجد ان كتب الرجال رتبت حسب الالقاب في الاغلب الاعم ٠

ومن أوائل كتب الرجال «كتاب التاريخ الكبير» لابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ • ومن الواضح ان البخاري وضع تاريخه هذا بغية تحقيق أحوال رواة صحيحه المشهور ، ويبدأ الكتاب بترجمة الرسول (ص) ثم من اسمه محمد اجلالا للرسول (ص) واكراماً له وتبركاً باسمه ، وهي عادة انتقلت الى الكثيرين من مؤلفي كتب التراجم سواء أكانوا مؤرخين أم ادباء • ثم تأتي التراجم بعد ذلك مرتبة حسب الالفباء • وتتضمن الترجمة عادة : اسم المترجم ، وشيوخه ، والحديث الذي رواه باسناده ؛ أو حديثا أو أمرا يتعلق بأحد الصحابة ، ثم تلامذته ، وفي بعض الاحيان القليلة تاريخ وفاته • وفيما يأتي مثال من تاريخ البخاري(٦١) :

« محمد أبو عبدالله الاسدي • قال لنا عبدالله بن صالح : حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي عبدالله محمد • سمع وابصة الاسدي ، قال : جئت لأسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « البر ما انشرح في صدرك والاثم ما حاك في صدرك » • وقال عبدالله بن محمد الجعفي ؛ حدثنا يزيد ابن هارون ، قال : أخبرنا حماد بن سلمة ، عن الزبير أبي عبدالسلام ، عن أيوب بن عبدالله بن مكرز ، عن وابصة بن معبد ، قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « استفت نفسك » نحوه ، ولم يذكر سماع بعضهم من بعض » •

وقبل التطرق الى انتقال طريقة المحدثين في كتابة التراجم الى الفروع الاخرى نرى من الواجب أن نلقي نظرة سريعة الى كتب المحدثين في هذا المضمار ؛ فقد ألف المهتمون بالحديث كتباً كثيرة يدل تخصصها على اتساع حركتها • وان لهذه الكتب نفسها أهميتها التاريخية ، فهي ولا شك تدخل ضمن صور الكتابة التاريخية ، وتتضمن معلومات لا بأس بها مبثوثة في ثناياها ، وان كان الباحث يتجشم بعض الصعاب للحصول على المعلومات منها ، فأكثر ما ترد المعلومات فيها عرضا ودونما قصد من المؤلف ، ومن أمثال ذلك ذكر المدارس والمدرسين ، والربط ، والزوايا ، والمساجد والجوامع ، والخانقاهات • كما انها تلقي بعض الاضواء على الحياة الاجتماعية وما الى ذلك من مجالات التاريخ المختلفة •

وقد بلغت الدقة والضبط والتحقيق عند المحدثين أن كتبوا في جميع أنواع الرجال فألفوا في :

١ ـ المحدثين عموما مثل : «كتاب التاريخ الكبير» للبخاري الآنف الذكر ، و « الجرح والتعديل » لاحمد بن عبدالله بن صالح العلجي ، الكوفي «ت ٢٦١هـ » ، وكتاب «الجرح والتعديل» لابي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي «ت ٣٢٧هـ» ، و «التاريخ الكبير» لابن حزم الاندلسي « ت ٣٥٠هـ » ، وكتاب « التكملة في أسماء الثقات والضعفاء » لابن كثير الدمشقي «ت ٧٧٤هـ» ، و «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» للحافظ

محمد بن عبدالغني الحنبلي البغدادي المعروف بابن نقطة «ت ٦٢٩هـ» .

٢ـ والصحابة مثل : كتاب «معجم الصحابة» لعبدالله بن محمد بن عبدالعزيز المعروف بابن البغوي «ت ٣١٧هـ» وكتاب « الاستيعاب في معرفة الاصحاب» لابي يوسف عمر بن عبدالبر «ت ٤٦٣هـ» ، و «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعزالدين علي بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الاثير المؤرخ المشهور «ت ٦٦٣٠هـ» ، وجرده الامام الحافظ أبو عبدالله شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨» في كتابه التجريد ، كما كتب ابن حجر العسقلاني «الاصابة في تمييز الصحابة» ... الخ .

٣ ـ والثقات ، مثل : «الثقات» لابي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي الشافعي المتوفى سنة ٣٥٤هـ ، وكتاب « الثقات الذين لم تذكر أسمائهم في الكتب الستة » لسيف الدين محمد بن محمد بن عمر بن قطلبوغا الحنفي المتوفى سنة ٨٨١هـ .

٤ ـ والضعفاء ، مثل : كتاب « الضعفاء » لمحمد بن اسماعيل النجدي و « الضعفاء » لمحمد بن عبدالله الزهري «ت ٢٤٩» ، و « الضعفاء والمتروكين » للنسائي ، و «الضعفاء» لعلي بن عمر البغدادي الشافعي المعروف بالدارقطني «ت ٣٨٥هـ» ، و «ميزان الاعتدال» للحافظ أبي عبدالله شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨هـ» وقد ذيل عليه الحافظ زين الدين عبدالرحيم بن الحسين المصري الشافعي المعروف بزين الدين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ في مجلدين .

٥ ـ والمدلسين[٦٢] مثل كتاب « أسماء المدلسين » للحسين بن علي ابن يزيد الكرابيسي البغدادي « ت ٢٤٥ » وهو أول من صنف في أسماء المدلسين ، وكتاب « التبين في أسماء المدلسين » لابراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة ٨٤١هـ . كما ألف الحافظ برهان الدين سبط ابن العجمي المتوفى سنة ٨٤١هـ رسالة في التدليس والمدلسين . وكتب الحافظ ابن حجر العسقلاني رسالة في هذا الباب . ولجلال الدين السيوطي «ت ٩١١هـ» رسالة في أسماء المدلسين أيضا .

٦ ـ وفي رجال كتب حديث مخصوصة تتناول رجال ذلك الكتاب فقط مثل : كتاب « الارشاد في معرفة رجال البخاري » لاحمد بن محمد بن الحسين البخاري الكلاباذي[٦٣] المتوفى ٣٩٨هـ ، و «رجال مسلم لابي بكر أحمد بن علي بن منجويه ، الاصبهاني المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، و « اتحاف السالك برواة موطأ مالك » لابي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن ناصرالدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ ، و «اسعاف المبطأ برجال الموطأ» لجلال الدين السيوطي . أو كتابين : مثل كتاب « الجمع بين كتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الاصبهاني رحمهما الله تعالى في رجال البخاري ومسلم » للحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧هـ . أو تضمن رجال أربعة كتب مثل ما فعل ابن حجر العسقلاني عندما جمع رجال موطأ مالك ومسند الشافعي ومسند أحمد ومسند أبي

حنيفة . كما جمع شهاب الدين أحمد بن أحمد الكردي ، الهكاري المتوفى سنة ٧٦٣هـ رجال السنن الاربعة (سنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة) . أو في ستة كتب كما فعل أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠هـ في كتاب «الكمال في معرفة الرجال» . أو عشرة كتب مثل : كتاب «التذكرة برجال العشرة [الصحاح الستة والموطأ ومسند أحمد ومسند الشافعي ومسند أبي حنيفة] لمحمد بن علي بن حمزة الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٥هـ .

هذا التأليف الواسع الشامل في شتى المجالات قد أثر تأثيرا بالغا على كتب التراجم التي لم تقتصر على المحدثين ، فاتخذت طابعها نفسه من حيث عرض الترجمة ، ومضمونها . وقد أكد مؤلفو كتب التراجم انهم ساروا على نهج أهل الحديث في كتاباتهم . قال ابن تغري بردي الاتابكي«ت ٨٧٤» في مقدمة كتابه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» : « وضعته على الحروف وتواليها ، لتقرب ثمرات جناه من يد جانيها كما سبقني الى ذلك جماعة من المتقدمين والى الآن من ارباب الحديث وطبقات الفقهاء والاعيان »(٦٤) . ومعلوم ان المنهل الصافي يحوي على تراجم مختلفة شملت الملوك ، والوزراء ، والاعيان، والوجهاء ، والفقهاء ، والمحدثين ، والصوفية وما الى ذلك . وقد ظل مضمون التراجم وطريقة العرض يسير على منوال المحدثين في الكتب الاخرى . يقول ابن بشكوال «ت ٥٧٨هـ» في مقدمة كتابه « الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وادبائهم» موضحاً طريقته في عرض الترجمة : « وكنت قد قيدت كثيرا من أخبارهم وآثارهم ، وسيرهم ، وبلدانهم ، وأنسابهم ، ومواليدهم ، ووفياتهم ، وعمن أخذوا : من العلماء ، ومن روى عنهم : من أعلام الرواة ، وكبار الفقهاء »(٦٥) . ولا ريب ان هذه هي طريقة المحدثين بعينها .

ثالثا ــ كتب التواريخ العالمية(٦٦) والعامة :

لم يقتصر تأثير كتب رجال الحديث على كتب التراجم والطبقات عموماً حسب بل انها أثرت في طريقة كتابة تواريخ العالم والتواريخ العامة الاخرى . صحيح ان تأثير علم الحديث كان قليلا في الكتب الاولى التي تناولت تاريخ العالم ، كتاريخ اليعقوبي و « مروج الذهب » للمسعودي و «تاريخ الدول» لابن العبري ، و «تجارب الامم وتعاقب الهمم» لمسكويه التي تكاد أن تكون خلوا من التراجم المنظمة وان وجدت فهي بشكل مقتضب يدل على عدم الاهتمام بها ، لكن الذي يلفت النظر في كتب تواريخ العالم منذ القرن السادس الهجري هو تطور كتابه التراجم بها ، فقد زاد الاهتمام بالاشخاص حتى غلب على الحوادث . ويعتبر ابن الجوزي «ت ٥٩٧هـ» في كتابه «المنتظم في تاريخ الامم والملوك» أول من بدت عنده الظاهرة بشكل واضح . فقد وضع تقسيماً فاصلا بين الحوادث والوفيات ، ووضع الوفيات

بعد حوادث كل سنة ورتبها حسب الالفباء . والملاحظ ان المعلومات التي يقدمها ابن الجوزي في حوادث السنة أقل أهمية من الكتب الاخرى كالكامل في التاريخ مثلا لابن الاثير «ت ٦٣٠هـ» ، في حين نجد اهتمامه بالتراجم أكثر . وقد اهتم ابن الجوزي بتراجم رواة الحديث بصورة أخص . ويبدو هذا الامر أكثر وضوحا عند المؤلفين الذين جاءوا بعد ابن الجوزي كأبن كثير «ت ٧٧٤هـ» في كتابه «البداية والنهاية» والذهبي «ت ٧٤٨هـ» في « تاريخ الاسلام» و «تاريخ دول الاسلام» . وما كان القرن السابع الهجري يوشك بالانتهاء حتى نلاحظ ان معظم الكتب التاريخية العالمية والعامة أصبحت كتب تراجم .

ولقد كان لعلم الحديث وطريقته أثرا عظيما في هذا التطور ، فالسيوطي «ت ٩١١هـ» يؤكد ان كتابة التاريخ يراد بها « معرفة الآجال وحلولها ، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق ، ووفيات الشيوخ ومواليدهم ، والرواة عنهم ؛ فتعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين »(٦٧) وهو متأت دون ريب عن انتشار وتوسع نظرة المسلمين الدينية الى التاريخ ، كما ان المؤرخين في هذا الوقت كان جلهم من المحدثين الذين اعتبروا التاريخ من العلوم المساعدة لعلمي الحديث والفقه . وفيما يأتي نموذج لترجمة من تاريخ المنتظم لابن الجوزي لواحد من اهل العربية :(٦٨) « عبدالله بن ثابت ابن يعقوب ، أبو عبدالله المعري ، النحوي ، القوزي . سكن بغداد . وحدث عن عمر بن شبة . روى عنه أبو عمرو بن السماك ، وغيره .

اخبرنا ابو منصور القزاز ؛ اخبرنا ابن ثابت ؛ اخبرنا ابو القاسم عبيدالله بن محمد النجار ، اخبرنا محمد بن عبيدالله الكيالي ، قال : قال لنا محمد بن الهيثم : انشدنا عبدالله بن ثابت لنفسه :

اذا لم تكن حافظاً واعياً	فعلمك في البيت لا ينفع
وتحضر بالجهل في مجلس(*)	وعلمك في الكتب مستودع
ومن يك في دهره هكذا	يكن دهره القهقرى يرجع

توفي عبدالله في هذه السنة [ ] ودفن بالرملية » .

رابعا ـ كتب الاسماء والكنى والالقاب والانساب :

لقد ادى علم الحديث ، ووجوب ضبط الرواة الى ظهور علم المؤتلف والمختلف والمفترق والمتفق والمشتبه من الاسماء والكنى والالقاب والانساب . وهو نوع من التراجم على نمط آخر في الترتيب كان المقصود من التأليف فيها ضبط الاسماء والكنى والالقاب والانساب خوف الاختلاط والتصحيف . والمؤتلف قد يكون في الخط نحو « المعرى » و « المعدني » أو المؤتلف في الصورة المختلف في الاعجام نحو « باغر » و « باعز » ، أو في الشكل نحو « بشري » و « بشرى » ، أو المؤتلف المختلف في تقديم الحروف

على بعض مثل « الارزي » و « الازري » وما الى ذلك(٦٩) .

ومما تقدم يلاحظ المرء ان السبب في نشوء هذا العلم هو الحديث وما كان يعاني اهل الحديث من المشقة في ضبط الاسماء والرواة . وقد الف المحدثون كتبا كثيرة جدا في هذا المضمار تدل على صبرهم وجلدهم ، فكتبوا في هذا المجال عموماً او في موضوع خاص منه(٧٠) فكان عملا ضخما جليلا . وكان ان سرى الامر الى المهتمين بالعلوم الاخرى فألف ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي « ت ٣٧٠هـ » مثلا كتاب « المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء » .

ولا نريد التوسع هنا نظراً لضيق المجال ، لكن ارى من الواجب ان يلاحظ المرء اهمية هذه الكتب في دراسة التاريخ الاسلامي حتى اصبح الكثير من معلوماتنا في العصور المتأخرة يعتمد كثيراً على هذه المؤلفات . كما وجب ايضاً ملاحظة ان هذه المؤلفات لم تقتصر على المحدثين حسب بل تناولت مختلف طبقات الناس مثل : المحدثين ، والفقهاء ، والمدرسين ، والامراء ، والوزراء ، والخلفاء ، والمفسرين ، والمتكلمين ، والشعراء ، والنحويين ، والادباء ، واللغويين ، والكتاب ، والحكماء ، والاطباء ، والمؤرخين ، والزهاد ، والوعاظ ، والصوفية .. الخ .

ولعل أهم ما يلفت النظر هو تطور علم الانساب عند المسلمين بتأثير علم الحديث ، فقد كانت الانساب قائمة عندما بدأ علم التاريخ الاسلامي يظهر الى الوجود ، بل ربما كان النسب اسبق من التاريخ في التدوين . وكان القصد منها افتخار الناس بأجدادهم ، سواء اكانوا قرشيين ام من القبائل العربية ام من الاشراف والحكام(٧١) . وكانت هذه الكتب تهتم بالدرجة الاولى بالقبيلة والجنس .

ثم انتشر الاسلام في مساحات شاسعة من المعمورة . وسكن العرب في المدن . واشتغلوا بالعلوم والآداب والفنون ومارسوا كافة النشاطات الثقافية . كما انصرف الكثير منهم ومنذ القرن الثاني الى الاشتغال بالمهن والحرف والصنائع والزراعة بعد ان كانوا يحتقرونها . ثم ان عدداً ضخماً من الاعاجم اعتنق الاسلام . كل هذه الامور ادت الى اختلاط الانساب ، وظهور انساب جديدة الى جانب النسبة الى القبيلة أو العشيرة أو الجنس والتي كانت سائدة قبل الاسلام وصدره . فنسب الناس الى الاقاليم مثل : العراقي ، والمصري ، والاندلسي . او الى المدن مثل : البغدادي ، والبصري ، والاصفهاني . او الى محلة في مدينة ، نحو : الدارقطني نسبة الى محلة ببغداد ، والكرخي ، والجماجمي نسبة الى محلة بجرجان . او الى قرية مثل : الدلاصي نسبة الى قرية من صعيد مصر ، والبكردي نسبة الى قرية من قرى مرو ، والرامني نسبة الى رامن وهي قرية من قرى بخارى . أو الى المذاهب مثل : الشافعي ، والحنفي ، والحنبلي . أو الى الفرق مثل : المعتزلي ، والخارجي ، والجهمي . أو الى الحرفة والصنعة مثل : الفوطي

نسبة الى عمل الفوط ، والحفار نسبة الى حفر القبور • والدباس نسبة الى من يعمـــل الدبس او يبيعه • او علـــم من العلوم نحو : النحوي ، والتاريخي ، والاثري نسبة الى الاثر وهـــو الحديث الشريف وطلبـــه واتباعه • أو الى وظيفة من الوظائف مثل : الخازن نسبة الى من يتولى خزن الـكتب أو الاموال ، والقاضي ، والمحتسب •

يضاف الى كل ذلك ان الشخص الواحد صار ينسب الى نسب متعددة مثل :

أبو محمـــد عبدالمحسن(٧٢) بن ابي العـــلاء ••• الخثعمي المصري الشافعي الاثري السراج(٧٣) •

وأبو الخير دلف(٧٤) بن عبدالله بن محمد بن عبدالله الازجي(٧٥) الفقيه الحنبلي المعروف بابن التيان(٧٦) •

والاديب ابي الحسن علي(٧٧) بن بكمش بن عبدالله التركي العزي النحوي الملقب بالفخر •

لذلك تبدل مفهوم الانساب وظهر اتجاه آخر في كتبها امسك بعنانه المحدثون فوضعوا كثيراً من الـكتب في هذا المضمار •• لقد كان القصد من هذه الـكتب التفريق بين النسبة والاخرى من جهة وكتابه انساب الرواة حسب المشهور ، ومن ثم تبيان المشهورين بها • ولعل كتاب الانساب لابي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ مثال حي لمـــا ذهبنا اليه(٧٨) فهو يذكر النسبة ، واصلها ، ثم يذكر المشهورين بها من الرواة وغيرهم • ويورد شيوخ كل واحد منهم ، ومن روى عنه ، واقوال العلماء فيه من حيث توثيقه ، وتاريخ وفاته ومحلها •

وتمتاز هذه الكتب باهميتها التاريخية فهي غنية الى حد بعيـــد بالمعلومات التي قد لا تجدها في غيرها من الـكتب ، لـكن من أهم مساوئها تبعثر معلوماتها وتشتتها لذلك وجبت قرائتها من اولها الى آخرها بغية الحصول على المعلومات المختلفة • كما اننا نجد فيها نقولا عن كتب ضاع اكثرها ، فالسمعاني مثلا ينقل بشكل واسع عن كثير من الكتب الضائعة وبخاصة التواريخ المحلية • وقد رحل من اجل كتابه هذا الى الآفاق سائحا وسكن لمـــدة في ما وراء النهر وخوارزم ٥٥٠ ــ ٥٥١هـ(٧٩) ، وســـمع ببخاري(٨٠) ، وسمرقند(٨١) ونسف(٨٢) وترمذ(٨٣) وغيرها من البلدان •

وفيما يأتي مثال من كتاب الانساب للسمعاني يكاد ان يكون انموذجا تاما لباقي الكتاب •

« العارض • بفتح العين المهملة والراء المـكسورة بعـــد الالف وفي آخرها الضاد المعجمة • هذا الاسم لمن يعرف العسكر ، ويحفظ ارزاقهـم ويوصلها اليهم • ويعرض العسكر على الملك اذا احتيج الى ذلك • واشتهر [بذلك](٨٤) ابو صالح محمد بن محمد بن عيســـى بن عبدالرحمن بن سليمـــان العارض • وكان اديبا فاضلا عالما • تقلد الاعمال الجليلـــة

للسلطان(٨٥) ، وحمدت سيرته فيها . وكان سمع الحديث الكثير بخراسان والعراق . سمع بنيسابور اباه ، وبمرو يحى بن ساسويه المروزي ، وببخارى ابا علي صالح بن محمد الحافظ الجزري(٨٦) ، وبالري محمد بن ايوب الرازي ، وببغداد عبدالله بن احمد بن حنبل ، وابا مسلم ابراهيم بن عبدالله الكجي(٨٧) ، واقرانهم . سمع منه الحاكم ابو عبدالله الحافظ وذكره(٨٨) فقال : أبو صالح بن عيسى العارض ، احد مشايخ خراسان ، ومعتمد اولياء السلطان . وكان من العقلاء الادباء المحبين للعلماء والصالحين المفضلين عليهم بماله وجاهه . وكان يرشح للوزارة فيأبى عليهم . قال الحاكم : وكان ابو صالح ابن اخي امي(٩٠) ، ولنا به اختصاص القرابة والصحبة . كتبت عنه بنيسابور غير مرة . ثم كتبنا عنه بمرو ، ونظرت في كتبه بها سنة ٤٣ . وتوفي بمرو ليلة الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٤٤ »(٩١) .

اما المظهر الخامس من مظاهر هذا التأثير فيتمثل في التواريخ المحلية أو ما يسمى (بتواريخ المدن) . وسنفرد له بحثا خاصا نظرا لاتساع مطلبه وتشعبه .

---

(١) انظر عن هذه الكتب واهميتها : مقدمة الدكتور معظم حسين لكتاب « معرفة علوم الحديث » لابي عبدالله الحاكم النيسابوري « ت ٤٠٥ » (القاهرة ١٩٣٧) ، و « علوم الحديث ومصطلحه » للدكتور صبحي الصالح (دمشق ١٩٥٩) ص أ - هـ/١٠٥ - ١١٢/٣٢١ - ٣٢٧ . ويعد كتاب « الكفاية في علم الرواية » للخطيب البغدادي من الكتب الممتازة الجامعة الشاملة لهذا الموضوع . وكثير من الكتب التي وضعت بعده انما هي عيال عليه .

(٢) مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم . طبعة محمد فؤاد عبدالباقي . القاهرة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥ « باب بيان ان لاسناد من الدين » ، الدارمي : « باب في الحديث عن الثقات » ج ١ ص ١١٢ ، الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية . (حيدر آباد ١٣٥٧هـ) ص ١٢٢ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣ - ٤ (ط . القاهرة ١٣٢٥هـ) .

(٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ١٩٨ (ط . القاهرة ١٣٦٩هـ) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٤٦ (ط . ريتر) .

(٤) عن : J. Schacht: Origins of Muhammadan Jurisprudence pp. 36-37.

(٥) المغازي الاولى ومؤلفوها . ترجمة الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٤٨) ص .

(٦) الدارمي : باب في توقير العلماء ج ١ ص ١١١ .

(٧) الرازي : الجرح والتعديل ج ٣ قسم ٢ ص ١٣٣ - ١٣٥ ، ياقوت : ارشاد (ط . مرغليوث) ج ٦٦ ص ٢٠٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٢٧ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبير (ط . سخاو) ج ٢ قسم ٢ ص ٧ .

(٩) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ص ٢٢٠ (القاهرة ١٩٦٣) [وهي رسالة ماجستير من كلية العلوم نالت درجة ممتاز] ولا اعلم ما الذي دفعه الى هذا القول مع ان ابن سيرين لم يصرح بماهية الفتنة . ومن ثم فان هذا ضرب من التخمين الذي لا يستند الى دليل .

(١٠) انظر : Schacht: op. Cit. pp. 36-37

(١١) انظر عن هذه الفتنة : فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها . ترجمة يوسف العش . دمشق ١٩٥٦ ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

(١٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٦٤ (الاستقامة ١٩٣٩) وانظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٧٠ (ط • المنيرية ١٣٥٧هـ) •

(١٣) الدارمي : باب في الحديث عن الثقات ج ١ ص ١١٢ •

(١٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٩٤ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٥٥ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٧ فما بعد •

(١٥) ابو حاتم الرازي : الجرح والتعديل • حيدر آباد ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ج ١ ص ٣٤ •

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ١٧٢ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ • حيدر آباد ١٣٣٣هـ ج ١ ص ٧٥ • ابن حجر : تهذيب التهذيب • حيدر آباد ١٣٢٥هـ ج ٥ ص ٦٦٥ •

(١٧) الخطيب : السنة قبل التدوين ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ نقلا عن كتاب مقدمة التمهيد لابن عبدالبر (مخطوط بدار الكتب المصرية) ص ١٤ ب •

(١٨) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٥٣ ، أبو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء (القاهرة ١٩٣٨) ج ٨ ص ١٦٢ فما بعد ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٢ ، ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٥ •

(١٩) صحيح مسلم ج ١ ص ١٥ ، السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي • القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٥٩ •

(٢٠) انظر : الخطيب : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤١٢ ـ ٤٢٣ ، أبو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء ج ٩ ص ١٦١ فما بعد ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٥ ـ ٣٤٣ (ط • القاهرة ١٩٣٢) •

(٢١) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ •

(٢٢) انظر : أبو نعيم : حلية الاولياء ج ٦ ص ٣١٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٥ •

(٢٣) راجع مقدمة الدكتور محمد كامل حسين للموطأ • (ط • محمد فؤاد عبدالباقي • القاهرة ١٩٥١) •

(٢٥) بولاق ١٣٠٢هـ •

(٢٥) الطبري : تاريخ ج ١٠ ص ٤٧ فما بعد ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥ فما بعد ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٦٩ ••• الخ •

(٢٦) الرسالة تحقيق حمد محمد شاكر • القاهرة ١٩٤٠ ص ٤٠٥/٤٣١ •

(٢٧) نفس المصدر ص ٤٦١ ـ ٤٧١ •

(٢٨) نفس المصدر ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ •

(٢٩) Schacht, op. cit p. 163

(٣٠) لقد امر عمر بن عبدالعزيز بتدوين الحديث [الدارمي ج ١ ص ١٢٦] حينما كتب بذلك الى ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عامله على المدينة • ولكن ليس لدينا ما يثبت ان الاخير قد قام بهذا العمل • لمعلومات اوسع انظر : أحمد امين : ضحى الاسلام الطبعة الثانية • القاهرة ١٩٣٨ ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، جب : بدء التأليف النثري • مقالة منشورة في كتاب المنتقى من آثار المستشرقين لصلاح الدين المنجد ص ١٣٧ •

(٣١) رويت عن الرسول أحاديث كثيرة في هذا المجال اشهرها ما روى عنه (ص) : « من قال علي ما لم اقل فليتبوأ مقعده من النار » • انظر الشافعي : الرسالة ص ٣٩٦ والحاشية رقم (٥) في تخريج الحديث • كما تشدد الخليفة عمر بن الخطاب في رواية الحديث • انظر : الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣ ، كذلك الدارمي : « باب اتقاء الحديث عن النبي (ص) والتثبت فيه • » •

(٣٢) انظر مثلا القرآن الكريم الحشر/٧ ، النساء/٥٩/٦٥ ، الرسالة للشافعي ص

٢٢/٣٢/٤١/ ٧٣ ـ ١٠٣/٩٣ ـ ١٦١/١٤٦/١٠٩/١٠٥ ـ ١٩٧/١٦٦ ـ ١٩٩/١٢٥/٢١٧/ ٢٢١/٢١٩ ـ ٢٣٢/٢٢٦ ـ ٤٠١/٢٣٥ ـ ٥٤٤/٤٠٢ ·

(٣٣) الدوري : بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب ص ٣٢ فما بعد ·

(٣٤) توفي نصر بن مزاحم سنة ٢١٢هـ وطبع كتابه عبدالسلام هارون انظر ط ٢٠ ١٣٨٢هـ · (الاقلام : طبع هذا الكتاب أولا في بلاد العجم على عهد ناصرالدين شاه القاجاري سنة ١٣٠٠هـ = ١٨٩٦م) ·

(٣٥) الطبري : تاريخ ج ١ ص ٧ ـ ٨ ·

(٣٦) انظر مثلا : الرسالة ص ٥٤٤/٢٩٥/٣٤١/٣٢٢/٢١٧ ·

(٣٧) الرسالة ص ٣٩٩ · وانظر ايضا : Schacht: op. Cit. p. 3, 36.

(٣٨) يقول ابن حجر [شرح نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر · القاهرة ١٩٣٤ ص ٣٤] ان مراتب صيغ الاداء ثمانية هي : سمعت وحدثني ، اخبرني وقرأت عليه ، قرىء عليه وانا اسمع ، انبأني ، ناولني ، شافهني ، كتب الي ، عن وقال وذكر وروى ونحوها وهي الصيغ التي تحتمل السماع والاجازة ، ولعدم السماع أيضا · قلت : ومع ذلك يبدو من الصعب اجراء هذا التقسيم فقد بلغت هذه المراتب ، كما تدل عليه كتب الرجال ، اكثر من هذه الكمية بكثير ·

(٣٩) المنقطع هو السند الذي يسقط من رواته واحد ·

(٤٠) المرسل هو المنقطع السند ·

(٤١) انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٦١ ـ ٦٣ « ··· ليس بثقة ·· كذاب ·· متروك ·· وقال ابن حبان [البستي] مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه اظهر من ان يحتاج الى الاغراق · » وينقل عنه الطبري انظر مثــــلا التاريخ ج ١ ص ٣١٠ ج ٢ ص ٣١٢/٢٧٢ ·

(٤٢) انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٥٦ « ·· الاخباري النسابة العلامة ··· قال احمد بن حنبل كان صاحب سمر ونسب ما ظننت ان احدا يحدث عنه · وقال الدارقطني وغيره : متروك » ينقل عنه الطبري كثيرا انظر مثلا التاريخ ج ١ ص ٣١٠/٢٣٤/٢١٢ ، ج ٤ ص ٥٥٥/٥٤٧/٢٤٦/ج ٥ ص ٥٦٩/٤٤٩/٤٠١/٢٥٧/١٨٥ ·

(٤٣) انظر ابو حاتم الرازي : الجرح والتعديل ج ١ قسم ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ وهو على اي حال غير ثقة فقال بعضهم لا بأس به وقال آخرون ضعيف · ينقل عنه الطبري كثيرا انظر مثلا ج ١ ص ٣٥٩/٣٥٥/٣٥٣/٣٤٥/٣٣٨/٣٣٧/٣٣٤/٣١٩/٣٠٣/٢٥٣/٢٣٦/٢٢٥/ ٣٦١ ·

(٤٤) مثلا التاريخ ج ١ ص ٣٨٠/٣٣٠ ·

(٤٥) مثلا التاريخ ج ١ ص ٤٥٦/٣٤٣/٣٤٢/٣٣٥ ·

(٤٦) مثلا التاريخ ج ١ ص ٤٥٥/٤٣٥/٣٣٨ ·

(٤٧) مثلا ج ١ ص ٣٨٠ ·

(٤٨) مثلا ج ١ ص ٤٣٦ ، ج ٢ ص ٢٩٤ ·

(٤٩) مثلا ج ١ ص ٤٦٢ ·

(٥٠) مثلا ج ١ ص ٤٧٨/٣٥٣ ، ج ٤ ص ٥٥٧/٢٥٠/٢٤٢/٢٠٣/١٣٥/٩٢ ·

(٥١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ج ١ ص ٢٧٨ ، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ ·

(٥٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢٢ ·

(٥٣) يقصد بالطبقة الجماعة التي تشترك في السن ولقاء المشايخ · كما قد يقصد بها الجيل · انظر لسان العرب ج ١٢ ص ٧٩ فما بعد ، روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ص ١٣٣ (بغداد ١٩٦٣) ·

(٥٤) كان الواقدي قد كتب كتابا في الطبقات · وقد استعان به ابن سعد بشكل كبير ونهج نهجه قال ابن النديم [الفهرست ص ٩٩ ط · فلوجل] : « ان ابن سعد « الف كتبه من تصنيفات الواقدي · » انظر ايضا : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٢١ ، هورفتس : المغازي الاولى ومؤلفوها ترجمة الدكتور حسين نصار ص ١٢٦ ـ ١٣٢ ؛ ومقدمة الدكتور احسان عباس لطبعة بيروت لكتاب الطبقات ص ٥ ـ ١٧ ·

(٥٥) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٣٣ ·

(٥٦) السلمي : طبقات الصوفية تحقيق نورالدين شريبة (القاهرة ١٩٥٣) ص ٣ ·

(٥٧) نفس المصدر ص ٨٣ ـ ٩٠ ·

(٥٨) أي من الطبقة الاولى حسب ترتيب المؤلف ·

(٥٩) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٤٥ ·

(٦٠) نفس المصدر ص ١٤١ ·

(٦١) البخاري : التاريخ الكبير · حيدر آباد ١٣٦١هـ ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ·

(٦٢) جمع مدلس · والتدليس قسمان اولهما ان يروي الراوي عمن لقبه ما لم يسمعه منه أو عمن عاصره ولم يلقه موهما انه سمعه منه كان يقول « عن فلان » أو « قال فلان » · وثانيهما هو الاتيان باسم الشيخ أو كنيته على خلاف المشهور به تعمية لامره · انظر ابن كثير : اختصار علوم الحديث ط · الثالثة باعتناء وشرح أحمد محمد شاكر ص ٥٣ ـ ٥٦ ·

(٦٣) نسبة الى كلاباذ وهي محلة ببخارى ·

(٦٤) ج ١ ص ٣ (ط · دار الكتب المصرية ١٩٥٦) ·

(٦٥) ج ١ ص ٧ (ط · عزت العطار الحسيني ١٩٥٥) ·

(٦٦) انظر عن تواريخ العالم وتطور مفهومها والمؤلفات فيها بحث الاستاذ روزنثال القيم « علم التاريخ عند المسلمين » ص ١٨٣ ـ ٢٠٦ ·

(٦٧) السيوطي : الشماريخ في علم التاريخ · باعتناء سيبولد ، ليدن ١٨٩٤ ص ٧ ·

(٦٨) ج ٦ ص ١٥٨ (حيدر آباد ١٣٥٧هـ) ·

(*) الاقلام « في تاريخ بغداد للخطيب : وتحضر بالعلم في موضع » ج ٩ ص ٤٢٦ ولعل الاصل : تحصر ، من الحصر » ·

(٦٩) لمعلومات اكثر انظر : ابن ماكولا : الاكمال في دفع الارتياب عن المؤلف والمختلف من الاسماء والكنى والانساب » حيدر آباد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ · ومقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب « تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب » لابن الصابوني (ط · المجمع العلمي العراقي · بغداد ، ١٩٥٧) ·

(٧٠) انظر عن هذه الكتب : مقدمة الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني لكتاب الاكمال لابن ماكولا ص ٤ ـ ١٧ ، ومقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني ·

(٧١) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ·

(٧٢) ابن الصابوني : المصدر السابق ص ١٦ ·

(٧٣) نسبة الى عمل السروج ·

(٧٤) ابن الصابوني ، المصدر السابق ص ٥٣ ·

(٧٥) نسبة الى باب الازج وهي محلة ببغداد ·

(٧٦) نسبة الى التين وبيعه كما في السمعاني واللباب لابن الاثير ·

(٧٧) ابن الصابوني : المصدر السابق ص ٥٧ ·

(٧٨) انظر :

W. Barthold: Turkestan down to the Mongol Invasion, 2nd ed. (G.M.S.) London, 1928 pp. 34-35.

(٧٩) السمعاني : الانساب الورقة ٤٨٩ أ [نشرة سلسلة اوقاف جب] ليدن ١٩١٢ ٠
(٨٠) نفس المصدر الورقة ١٣٣٥أ/٤٧١ب ٠
(٨١) نفس المصدر الورقة ١٩١أ ٠
(٨٢) نفس المصدر الورقة ٥٥٩ب ٠
(٨٣) نفس المصدر الورقة ١٠٥ب ٠ « وكنت اقمت بها اثنتي عشر يوما ٠ »
(٨٤) الزيادة من كتاب اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير ج ٢ ص ١٠٤ (ط القاهرة ١٣٥٦هـ) ٠
(٨٥) يريد به الامير الساماني ٠
(٨٦) في اللباب « جزرة » ذكره السمعاني في الورقة ١٢٩أ وانظر ايضا اللباب ج ١ ص ٢٢٥ والنسبة هنا الى الجزيرة وهي جزيرة ابن عمر ٠
(٨٧) نسبة الى الكج وهو الجص ٠ ذكره السمعاني في الورقة ٤٧٥ب وانظر اللباب ج ٢ ص ٢٩ ٠
(٨٨) في الاصل [وذكر] ٠
(٨٩) أي تاريخ نيسابور ٠ ويسمى احيانا « تاريخ علماء نيسابور » أو « تاريخ النيسابوريين » والكتاب مفقود والموجود منه المختصر ٠
(٩٠) في اللباب لابن الاثير « وكان ابن خال ام الحاكم » ٠
(٩١) السمعاني : الانساب ٠ الورقة ٣٧٨أ ٠

